المشرق

جبال الألب ولبنان

للاب هنري لامنس اليسوعي

١

لقد امكنتني الفرصة في بحر السنتين ١٨٩٥ و١٨٩٦ ان اجتاز مرارًا في انحاء سويسرة فتسنّى لي في بُهرة مسيري ان اسرّح الطَّرف في هذه المناظر البديعة واقضي العجب من رؤية مشاهد الالب الشائقة ومعاينة بُحَيراتها الرائقة. وكنت اصادف مئين بل الوفًا من السيّاح والمرضى يتقاطرون الى سويسرة من اقاصي العالم فضلًا عن كلّ اصقاع اوربة رجاء ان يلقوا في هذه الجبال ترويحًا لنفوسهم او دواء لادوائهم

أجل اننا لا نجهل في سوريّة كم هو متّسع نطاق الصناعة في بلاد سويسرة وربّما وردت سواحلنا محصولات تجارتها. لكنّ تجارة سويسرة الكبرى هي توارُد السيّاح الى ارجائها فانّ معظم سكّانها يرتزقون من اموال الجموع الغفيرة من الزوّار الذين يتقاطرون اليها في كلّ عام فيصيب السويسريُّون بسببهم ثروة طائلة تغنيهم عن سائر المتاجر

هذا واني عند مشاهدة تلك الجبال الشامخة كنت افكّر في امر جبال أُخرى ألَا وهي جبال لبنان التي لقّبها كثيرٌ من الجوّالة الاوربيين «ألب سوريّة»(١ لما وجدوا بين الجبلين من التشابُه. بيد انني بعد ان تأمّلتُ مليًّا ما في هذا القول من الصحّة وجدتُ بزيد الأسف انّ فيه لقولًا ظاهرًا لا يكاد يطابق حقيقة الواقع

١) هكذا نعتها الدكتور كير في كتابه الموسوم Wanderfahrten im Orient ص ٤٢٨. وقال ريتان في كتاب رسالة فينيقية (ص ٢٢٠): «جبال لبنان كجبال الالب الّا انها اجمع منظرًا واعطر روائح من الالب»

وان نسب اهل سويسرة كلامي الى التعصُّب سألتهم تُرى ماذا يجعل جبال الالب في سويسرة شهيَّة في اعين السيَّاح حتى يهجروا اوطانهم واشغالهم ويقصدون عليها زرافات ليقضوا كلَّ سنة بعض اسابيع او شهور فوق قممها

فالجواب لا محالة انَّ بهجة مناظر جبال الالب هي الباعث الاول لمجيء الزوَّار. والحقُّ يقال انَّ لجبال الالب محاسن جمَّة لا يضاهيها غيرها. فانَّ الثلوج البيضاء تتوَّج رؤوسها المناطحة السحب واذا ما ارسلت عليها الشمسُ اشعَّتها الذهبية غابت مشاهدها العقول حسنًا وجمالًا. ومن خواصّ الالب اكتناز الجليد في وديانه فتضحي تلك الوهاد كبحار جامدة يبلغ سطحها عشرين كيلومترًا طولًا. ومع ما في زيارتها من المخاطر العديدة التي كثيرًا ما ذهبت بالارواح ترى اقوامًا من السيَّاح يترقَّون في مصاعد تلك الجبال ليزهوا طرْفهم في مباهج طبيعتها

وفي نطاق الجبل الواقع تحت هذه المشالح والبحيرات المتحلدة غاباتٌ كثيفة من انواع الشجر كالشربين والسنديان والعرعر تكسو تلك الرُّبى بحلل سندسيَّة. وربما انتشرت على معاطف تلك الجبال القرى والمزارع والمنازل الصينية تحدق بها الرياض الغنَّاء. وهنالك ايضًا الآثار القديمة كالقصور والبنايات تنبئ عن اخبار من فات من الشعوب. اما في سفح الجبال فتنصبُّ سيول المياه المزبدة الناتجة عن ذوبان الجليد وتطفر فوق الصخور بدويّ عظيم على شكل شلَّالات رائقة المنظر

ومن ابدع ما يلقاهُ المسافر في تلك الربوع البحيرات الصافية المياه المتشمشة في الشمس تعكس في مرآتها المائعة صورَ الجبال الشاهقة والاشجار الباسقة المكتنفة بها بينما تقطعها ذهابًا وايابًا اصنافُ الفُلك والمراكب الشراعية وصغار السفن التجارية. فلله درُّ بحيرة زوريخ وبحيرة جنيفة يعلو وراءها الجبل الابيض بل سقيًا وريعًا لبحيرة المقاطعات الاربع (Quatre-Cantons) التي موقعها في وسط سويسرة وهي كدرَّتها الثمينة وبيضتها الكريمة

هذه بعض خواصّ جبال الالب في سويسرة وهي كافيةٌ لأن تجعلها من اطيب بلاد الله وفردوسًا للناظرين. الَّا انَّ الاهلين لم يرضوا بهذه المحاسن الفريدة التي خصَّت بها الطبيعة جبالهم فأحبُّوا ان يضيفوا الى هذه المناظر الطبيعية عدَّة تحسينات صناعية من شأنها ان تستلفت ابصار السائحين

وازَّل ما يصرفون اليهِ همَّتهم العناية بالغابات فانَّهم لا يستكفون فقط عن قطعها بل

يفوقون كفاءة المجهود في تحسينها وتنظيمها وتمديد اغانيها وتوسيع نطاق اظلالها الوارفة

ومما شغل افكار السويسريين ان يجعلوا حيثما توارد السيّاح كلّ اسباب الرفاهية ورغد العيش رجاء ان يتوفّر في كلّ سنة عددهم. فشيّدوا في المواقع الحسنة النظر فنادق للزوّار وجهّزوها ما امكنهم بكلّ اسباب التنعّم والراحة ومدّوا اسلاك السكك الحديدية فوق متن تلك الجبال لم تأخذهم في إجراء ذلك لومة لائم. ومنها اخذ مهندسو سكّتنا الحديدية بين بيروت ودمشق الاسلاكَ المسنّنة والادوات التجارية المناسبة لها. هذا ولا ترى وسيلةً الّا توسّلوا بها ولا اختراعاً جديداً الّا استخدموهُ لادراك مرغوبهم حتى صارت سويسرة مثالاً يقتدي به غيرها من البلاد

وكلُّ هذه المشروعات الجليلة لا يلبث السيّاح ان يقوا بالربى نفقاتها الباهظة بما يدفعونهُ من الاموال للشركات القائمة بها. ومُجمل ما يقال انّهُ ما من بلد قد جمع مثل سويسرة بين الاسباب النافعة والبهجة معاً

٢

وان عدلنا الآن بالنظر عن سويسرة وجبال الالب كي نعتبر لبنان وما خصّهُ الله به من المناظر وجدنا انّ لهُ قسماً صالحاً من البدائع الطبيعية التي اهّلتهُ بان يُشبَّه بالالب. واذا تصفّحنا المصاحف الكريمة او كتابات السيّاح المحدثين وجدناهم يُطرون محامد لبنان ويثنون على جمالهِ الفائق. ولا حرَجَ فان لهذا الجبل منظراً جليلاً سواء عاينتَ عُرْفَهُ المستطيل في الصيف وهو ضارب الى الزرقة حيناً والى اللون المتورّد اخرى او شاهدتهُ في الربيع والشتاء. لمّا تتمّ قممهُ بالتاريج وتتوشّح اعطافهُ بالتين. واذا تصاعدت الابخرة الى الجوّ تُستشفُّ من ورائها بشاهق لبنان البهيّة فتتبيّن استدارات آكامهِ والمحدودات سفوحهِ ومعاطف وديانهِ حيث تتسلسل الجداول فيُسمع لخريرها صوت يأخذ بمجامع القلب

وبين هذه المناظر ما يُشبه الالب بغرابة صورتهِ وعلوّ صخورهِ. قال الدكتور لُرتة: اذا اعتبرت وادي نهر ابرهيم مثلاً لم تجد انّهُ دون مناظر الالب حُسناً فترى شمالاً صخوراً ضخمة مسنّنة الاطراف ويميناً طود الصنّين يتطلع بعرينهِ السحاب. وفي مضيق الجبل طريقاً حرجة تجتاز بين ركام الصخور المتحدّرة من علُ في وسط غابة من الصنوبر. وهذا المشهد الجميل يزيد حسناً على قدر توغّلك في الجبل. فاذا صرتَ بقرب المنيطرة رأيتَ خيّمة متّسعة الافناء لا تفوقها في شيء اجملُ مواقع جبال الالب والبرنيه تظلّلها اشجار

السنديان والصنوبر النابتة في وسط صخور تُشرف على الهاوية

صورة افقا

وليس ما تقدّم وصفهُ سوى مدخل لهذا الموقع الفريد الذي قابلهُ السياح برادي ثركلوز في فرنسة. واذا صعدت نحو ستمائة او سبعمائة متر بين صخور طباشيرية منحوتة نحتًا اسطوانيًا يُشرف بعضها على بعض على شبه الدرَج بلغتَ الى مغارة موقعها في جهة الشرق لها فوهة متسعة الجوانب مربَّعة الشكل لها نحو ستين مترًا طولًا في مثلها عرضًا. ومن وسطها تتفجَّر سيول المياه الصافية كالبلّور وتصطدم بالصخور المعترضة لسيرها ثمَّ تنهمر

منحدرة فوق رصف الحجارة وهي تزيد الى ان تبلغ الى جسر قديم ذي قنطرة واحدة تجتاز فوقهُ طريق السابلة وتحت الجسر المذكور ثلاث شلالات أخر بديعة المنظر وهي متناسبة القياس حتى زعم البعض سهوًا انها نُحتت بيد البشر . وفي بعض فصول السنة كما في حزيران يسبي منظرها القلوب لحسنها

وكلّ هذه الجهات غريبة جديرةٌ بان تكون مقصدًا للزوّار وفيها مشاهد طبيعية نادرة . ومثال ذلك جسر طبيعيّ بقرب العاقورة يتركّب من صخرة واحدة الّا انهُ لا يُشبه في غرابته جسرًا آخر طبيعيًا تمرُّ تحتهُ مياه نبع اللبن يبعد عن بيروت نحو ساعة ونصف . وهو حقيقة من النوادر فانّ مدخلهُ يبلغ خمسين مترًا وعلوّهُ عشرين مترًا لهُ قنطرة محكمة الصنع يرتاب من يراها في امرها فيقضي انها من شغل المهندسين

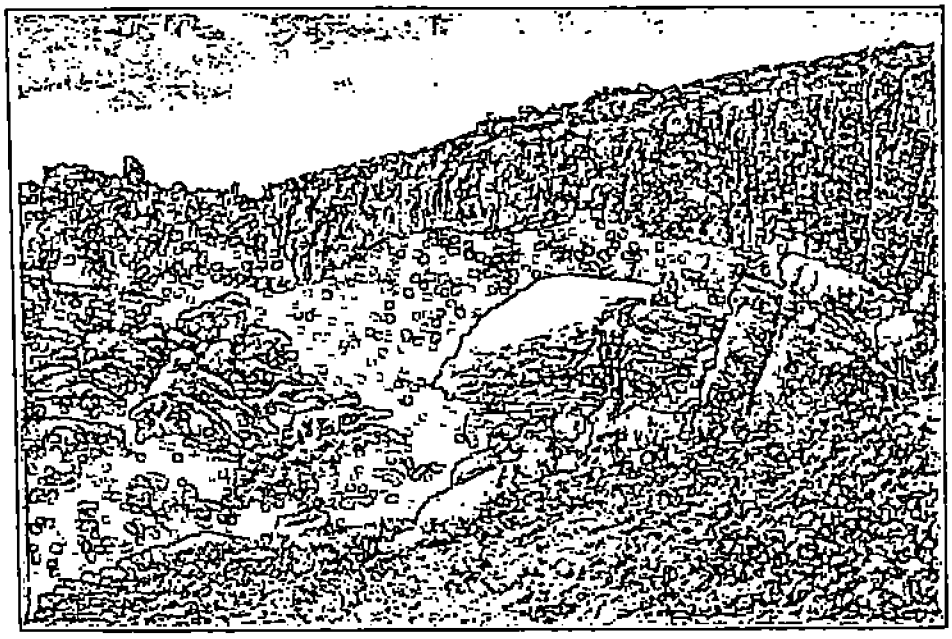

صورة الجسر الطبيعي

فكلُّ هذه المحاسن الطبيعية المتجمّعة بجوار جبل صنّين وجبل موسى وجبل المُنيطرة نقطةُ مركزها عند نبع افقا وبحيرة اليمّونة وهي تؤهّل لبنان بان يفاخر جبالَ الالب وياهي جهات اميركة الشمالية التي دعاها اهلها هناك الروض الوطنيّ . امّا نحن سكّان سوريّة فانّ روضنا الوطني انّما هو لبنان ومناظرهُ الشائقة

ذلك ويمكننا ان نضيف الى هذه المواقع البهيجة عدّة امكنة تستلفت اليها انظار السائحين كالخان الكبير والارز ومقاطعة وادي قاديشا الّا اننا اكتفينا بما سبق فذكرناهُ على سبيل المثل

ومع ما تقدّم وصفهُ أنّنا نقرّ انّ لبنان هو دون الالب من حيث ارتفاع قممه وتقاطيعه المتواترة فلا ترى فيه المثالج وسطوح الجليد والحروف المنتصبة كما في الجبل الابيض في سويسرة فانّ سلسلة لبنان متساوية الخطوط وهي اشبه بسور عظيم اقامتهُ الطبيعة في وجه البحار. الّا انّ هذا التناسب لا يمنع اختلاف المناظر وتواتر الوديان بحيث يمكننا ان نعدّ لبنان جامعاً لشروط الجبال

٣

ولجبال الالب السَّبق على لبنان في امر آخر تغني البحيرات التي تجعل سويسرة كما قلنا محطّاً لجموع الزوّار. امّا لبنان فليس لهُ لعارض الالب من هذا القبيل سوى بركة اليمونة على منعطف جبل المنيطرة الشرقيّ جنوبيّ قرية عينتا. الّا ان هذه البحيرة تنضب مياهها في الصيف ولا تتصاعد فيها المياه الّا عند هبوط امطار الخريف. وفيها يصبُّ نهر صغير يتفجّر في مغارة بقربها. فترى بعد قليل غور البحيرة يمتلئ ماء فيضحي بحيرةً طولها من ثلثة الى اربعة كيلومترات وعرضها نحو الف وثمانمائة متر. وليس لهذه البحيرة مجرًى تسيل منهُ المياه سوى منفذ في وسطها يُدعى البالوع تجتاز به المياهُ فتمرّ في سرب خفي تحت جبل المنيطرة فتخرج ثانيةً عند الغرب ومنها يتكوّن نهر ابرهيم. وقد يوجد بحيرة أُخرى بقرب بركة اليمونة وهي اصغر منها بكثير. فهذا غاية ما يحتوي عليه لبنان من البحيرات وذلك قليل جدًّا بالنسبة الى جبال الالب. غير انّ لبنان يكشف على البحر وذلك ما يقوم مقام البحيرات السويسريّة بل يفوق عليها لانّ المسافر يجد في سعة بحر الشام وتقلّبات احوالهِ ما لا يجدهُ في بحيرات الالب

وكأنّي هنا بالمنتصر للالب على لبنان يُلقمني الحجر وهو يقول: مالك تُطري لبنان ولا تكاد ترى فيه غابةً تظلّلهُ فشتّان بين لبنان والالب وشتّان بين خمر وخلّ

والحقّ يقال انّهُ يستولي علينا الاسف لمّا نرى لبنان كالرملة الصلعاء لا سيّما بعد ان كان مزيّناً بغاباته. كفانا بالاسفار الكريمة شاهداً على ذلك فكم شادت بذكر لبنان وارزهِ المشهور. وما بقي منها الى اليوم ينبئنا عن جمال لبنان القديم لمّا كانت كلّ قممهِ مغشّاة باغصان الارز الفنواء.

اما اليوم فغاية ما نراهُ من هذه الاشجار الجميلة موقعهُ في بُقعة بقرب بشرّاي في شرقيّها وهي عبارة عن بضعة مئات من الاشجار منها عشرة قديمة العهد عاديّة الجذور يزورها السيّاح. وحول هذه الغابة سور يصونها الّا انّ مدخلهُ مفتوح فتتفذهُ قطعان الغنم والمعزى وتتلف الاغراس الحديثة فلا يمكنها ان تنمو وتتأصّل في التربة. مع ان الامر سهل فيكفي ان يرصد المدخل ويقفل بباب فيحرسهُ بعض الزواطير. وعلى هذا التاطور ان يُلقّن مبادئ الزراعة ليقوم بمهنته قيامًا حسنًا ويناظر النابت الجديدة ويقوّم جذورها ويعضد فروعها. وليس في معاشهِ كبير امر فانّهُ يمكنهُ ان يرتزق بما يجنيهِ من بقايا الارز فيبيع ما تكسّر من اخشابه او سقط من فروعهِ او ما جمع من حبوبهِ. وكلُّ ذلك ذو قيمة فضلًا عن انّ الزوّار يتّخذون قِطَع الارز كذكر طيّب من تحوُّلهم في انحاء لبنان

هذا وانّ لخشب الارز خواصّ تفضّلهُ على ما سواهُ من الاخشاب فانّهُ صلبٌ صقيل ذو صفرة ناصعة مع خطوط محمرّة وهو طيّب الرائحة يصبر على الزمان دون ان يفسد. وكان الاقدمون يتطلّبونهُ لبناياتهم ويرغبون فيهِ ايّ رغبة (راجع كتاب الملوك الثاني ٧ : ٧ وكتاب اخبار الايّام الاوّل ١٧ : ٦ ونبوّة اشعيا ٩ : ١٠ وارميا ٢٢ : ١٤). وقد ذكر بلين الطبيعيّ (ك ١٣ ف ١١ و ك ١٦ ف ٧٦) انّ الفسّاد لا يطرأ على خشب الارز وأيّد ذلك بمثل هيكل الالهة ديانا في افسوس وكان سقفهُ من الارز ودام هذا المعبد اربعمائة سنة وتلف بالحريق. وكان القدماء اذا ارادوا وصف شيء بالخلود ضربوا لهُ الارز مثلًا (راجع شعر هوراس Ep. ad Pisones, 392 وشعر پرس Sat. I, 41). ومن الادلّة الواضحة على بقاء الارز ما وُجد منهُ في اخربة قصر ملوك اشور وذلك بعد الفين وسبعمائة سنة لوضعهِ فكانت اخشاب الارز على احسن حالة من البقاء فأُخذ منها قِطَع وصُقِلَت ثانيةً فكانت كانّها جديدة. وألقي بعض قِطَع في النار فانبعثت منها رائحة الارز الطيّبة المُثنى عليها في كتب الاقدمين (راجع شعر ڤرجيل Enéide VII, 13)

فان كان للارز كمثل هذه الخصائص فما بالنا لا نُعنى بتوفير زرعهِ ليس فقط في المكان الذي بقي منهُ بقايا لكن ايضًا في كلّ انحاء لبنان حيثما تشبه التربةُ والهواء موقعَ الارز في ايّامنا. فلو خرج هذا الامل الى حيّز الفعل لتغيّرت احوال لبنان وصار حقيقةً هذا الجبل من متاحف الدنيا. ولكن لا يتحقّق هذا الرجاء الّا بشرط ان تُعزل القطعان عن منابتهِ فانّ الحيوانات لاسيّما المعزى هي آفة الاشجار

٤

لقد استرسلنا في الكلام عن الارز لانهُ يُعَدّ من مفاخر لبنان الخاصّة ولكن لا نستثني بذلك ما سواهُ من الشجر . بل بالاحرى نودّ لو كثرت اصناف الاشجار فوق رُباهُ . وقد اطنب مؤرّخو العرب كالمقدسيّ (ص ١٦٩ و ١٨٨) وابن الفقيه (ص ١١٢ و ١١٧) وياقوت الروميّ (ص ٢ : ١١٠ و ٤ : ٣٤) والدمشقي (ص ١٩٩) وابن بطوطة (١ : ١٨٤) في وصف لبنان وما يعلوهُ من الاشجار المتنوعة . وذلك ممّا يدلّ على انّ لبنان لم يفقد غاباتهِ الى القرن الرابع عشر

صورة الجبل الواقع في طريق العاقورة والمشيطرة

قد جاء في كتابات قديمة وُجدت في بلاد جُبَيل شاهدٌ على عناية الحكومة الرومانية بالغابات في سالف الزمان تقرى على بعض الحجارة هذه الاحرف اللاتينية (A G IV C P)

وهي ملخص نصّ آخر هذا حرفهُ (Arborum genera quatuor cætera privata) معناها انَّ هنـالك اربعة اصناف من الشجر يجوز قطعها واما الباقي فهي تحت نظارة الحكومة لا يُسمح لاحدٍ ان يمسّها. فهذا دليل ظاهر على انَّ تلك الانحاء كانت مزدانة بالاشجار. وكانت الحكومة الوطنيَّة تحتكر اربعة اشكال من الشجر تستثمرها لنفسها وهي السرو والصنوبر والعرعر والشربين ولا يزال منها الى اليوم شيء في لبنان (١

فما لاهل لبنان لا يأتمون في زماننا بهذه الامثال الحسنة ولا حَرَج فانَّ يوسعنا ان نكرّر ما صنعهُ اجدادنا فنكسو لبنان بحلله السندسية كما في سالف الاوان. ولعلَّ قائلاً ان يقول قد تغيَّرت الآن احوال الهواء والتربة في لبنان فنجيب ليس الامر كما يزعم البعض فانَّ جبالنا لا تزال قابلةً للتحسّن. نعم اننـا نسلّم انَّ التربة كانت سابقًا اخصب واعمق وكانت مياه الامطار تستقرّ فيها زمنًا اطول ولكن اذا زُرع لبنان ثانية لا تلبث ان تتحسَّن بذلك الارض وتغزر مياه الينابيع بشرط ان تشترط حكومة لبنان على الاهلين ما اشترطهُ الرومان من النظارة على بعض اصناف الشجر لئلاَّ تعبث بها يدُ الحاطبين

وقد ادرك دولة متصرّف لبنان نعوم باشا ما تحت هذا الامر من الفوائد الجمَّة وعليهِ فلم يزل منذ تقلَّد منصبهُ السامي ان ينشّط الزراعة وتراهُ اليوم يفكّر في ردّ الغابات القديمة للبنان وقد اختار لذلك احد ادباء بيروت ذا الباع الطولى في هذه المعارف اعني الشابّ الذكي سليم افندي اصفر الذي درس في احدى مدارس فرنسة الشهيرة فنّ الزراعة بفروعها ونال فيها قصبة السباق. وعلى ظنّنا انَّهُ سيحقق باقرب وقت آمال اللبنانيين ويبرز الى حيّز الوجود صالح نيّات دولة المتصرّف

فاذا نجز هذا المشروع الجليل وتردَّى لبنان برداء خضرتهِ القديمة جاز لهُ ان يفاخر جبال الالب فان هذه هي النقطة المهمَّة التي تجعلهُ دون الالب مقـامًا اما باقي الصفات التي تتَّسم بها جبال سويسرة فلا نتأسف على فقدها. وزد على ذلك انَّ هـذه المحاسن لا

---

١) راجع ايضًا Végèce, IV, 4 . وقد ذكر المؤرّخ تاسيت (Hist. V, 6) غابات لبنان المتكاثفة. ومثلهُ القديس هيرونيموس في شرحهِ على نبوَّتَي هوشع وزكريَّا. والقديس كيرلّس في تفسير اشيا. وقال فوكاس احد كتبة القرن الثاني عشر « انَّ لبنان تظلّلهُ غابات الصنوبر والارز والعرعر وغيرها من الاشجار المثمرة »

يُمكن الانتفاع بها في سويسرة الّا في بعض اسابيع السنة لانتشار الغيوم وامتداد الضباب على اكثر انحاء تلك البلاد فتضحي سويسرة حتى في أيام الصيف كسيفة الوجه مكفهرّة الارجاء لا يستطيع السيّاح ان يبارحوا منازلهم ساعةً لاستنشاق الهواء والشمس وكثيرًا ما تخامرهم الكآبة وتخيب آمالهم في سويسرة فيقفلون عنها راجعين

وليس الامر كذلك في لبنان فانّ مناظرهُ لا يشوبها كدر فتراه منذ اوائل اذار الى اواسط تشرين الثاني في حالة من البهجة والابهة تخيّل للناظر ان الطبيعة في موسم دائم من الفرح به تنتعش القلوب وتنفتح الصدور بخلاف البلاد الشمالية التي لا يتنفّد هواؤها الرقة الّا نديًا مضنكًا

وهنا فليسمح لنا بان نختم هذه النبذة بملاحظة ذات شأن. وذلك ان اهل سويسرة قد شيّدوا في مراكز مختلفة من جبالهم لاسيّما في دقوس منازل للمرضى ليستنشق بها اهل الماهات ريح الجبال. فجاء الاختبار محققًا لآمالهم وقد شُفي عدد غفير من المرضى بسكناهم في هذه المستشفيات لا يتعالجون بدواء سوى تنسُّم الريح الطيّبة. فترى ماذا يمنعنا ان نقيم مثل هذه المقامات لمرضى بلادنا فنغنيهم عن تجشُّم الاسفار الى الاقطار البعيدة لمعالجة ادوائهم بينما يجدون في جوارهم ما هم اليه في حاجة ماسّة. وماذا يمنع اصحاب الامر عن مباشرة مثل هذه المشروعات او تنشيط بعض الجمعيات على مباشرتها؟ او لِمَ لا تُنظّم لجنةٌ من العلماء لفحص مياه لبنان وتعيين خواصّها الشافية ولا يخلو لبنان من مياه معدنيّة لعلّها تُشبه بنافعها مياه ڤيشي (Wichy) وماريناد (Marienbad). وكذلك يمكن ان يُرسم لكلّ بلديّة فيها مقامات للاصطياف رسمٌ يجرون بموجبه لتحسين تلك المقامات وغرس الشجر فيها وتوفير الطرق الى آخره . . .

ولكن قد حان لي ان اكفّ عن الكلام فانني اخشى ان اكون تجاوزتُ حدود الفطنة كانني سدّدتُ بسهام الملام الى اصحاب الامر وليس ذلك من قصدي وانّما اردتُ فقط ان لا يبقى لبناننا العزيز في درجة من الانحطاط والذلّ وهو اهل ليكون مجلبةً للابصار وتزهة يقصدها الناس من كلّ الاقطار